(٢١)

العبودية
في معناها مجردا عن المكان وعن الزمان
أنا ووجها لمعنى الإنسان

حديث الجمعة

١٢ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ - ٩ نوفمبر ١٩٦٢ م

الحمد لله.. الحمد لله الذي منَّ علينا، وهيأ لنا مولدا في بيئة الفطرة، وأرض النشأة، ونواة الحياة، فأوجدنا من أرض آدم في حضرته، وهيأ لنا فرصة التواجد في بيئته ببنوته، ليبدأ منا ما فاتنا من معنى الإنسان به، وليوجد لنا فينا معنى الإنسان بسعينا إليه.

نحمده ونسأله أن يتم لنا نورنا، وأن يتم علينا نعمته، ويحقق لنا بنا لنفسه بإرادتنا إرادته، بأن يوحد بين مراده ومرادنا، وإرادته وإرادتنا، حتى تكون إرادتنا إرادته، وحتى نرى في إرادته بنا إرادتنا به، فنرانا معنىً فيه وعبادا له، حقا موجودا لا يشارك، وقياما معروفا لا يجحد، وسلطانا قائما لا يخذل ولا يقهر ولا يغيب...

تعالى على الوصف، وتنزه عن الشريك، واتسع عن الإحاطة. تقارب إلى أبعاضه بأبعاضه قربا ماحيا للبعضية معه، مدرِّكا الوحدانية له، ربا مشهودا في رفيق أعلى، وإلها معبودا في وجود لا يحاط به...

لا تحصى آلاؤه، ولا يجهل عطاؤه، ولا يجز جزاؤه. المعاملة معه في الحياة به، والشهود له في أعماق النفس بوحدانيته، وفي كل ما يحيط بنا وجه إحاطته. نرانا بالعبودية معنىً فيه، لوجود منفرد له، لا وجود لنا ولكن وجوده، لا قدرة لنا ولكن قدرته، لا سلطان لنا ولكن سلطانه، لا جاه لنا ولكن عنوانه.

إن عرفنانا عبادا له، عرفنانا ذكرا له، وعرفناه لا يُعرف بجهلنا لأنفسنا فيه، فوصفناه بما ندرك من وصف أنفسنا تقريبا لفهومنا، أما هو فلا يتصف. وقدرناه بعظمة العجز عن إدراكه في تقدير معاني الحق منه بنا فيه لا نحيط به، ولا ننفصل عنه، ولا نجتمع على نهائية له، ولا على صورة مماثلة فيه أو

وجه في قيام متحد بلانهائيه، بل عباد مكرمون، يرفعون فيه طبقات فوق طبقات، يعنونونه في معارجه، مدانيا بوحدانيته، مباعدا بأحديته، قائما بإحاطته، كريما بقربه، قريبا برحمته...

الذل معه معزة، والافتقار إليه غنى، وتفريده بالوجود حياة. العبد فيه معنىً، ووصف الرب منه مغنىً. من عبَّد نفسه له عرف السعادة في معاني العبودية له والسيادة والربوبية على ثمار الفعل منه. ومن ربب نفسه على عباده لقي جزاءه في معاده مسودا مقهورا من عباد شهادته عليه جزاءً بما كسب.

هذه البشرية، هذه الفطرة، هذه الآدمية، تستوي على عرش أرضها بخلافته مخلفا لها على أرضه من ذواتها، دارا لها، وملكا له. المَلِك فيها من مَلَكَ نفسه، والسعيد فيها من عَرف ربه، والشقي من ظنه إياه، وفرض بوهمه على الناس معناه، دون إخراج منه، أو كلمة منه إليه، مثَّلها فمثَّله، وخرجها فأخرجه. الإنسان فيه على أرض هذه الفطرة من ذاته سيد نفسه بوعيه وحسه، إن شاء عشق الحرية والسيادة، وسود على نفسه، عين معناه، عبدا له، فما ظلم نفسه، بل شاء فعبَّدها لمولاه، عبدا له بمعناه، ولم يرَ في كل ما يرى إلا إياه، ولم يجحده بوحدانيته لمعناه، غير مشارك له بما يشهده لما بنى، من بنائه، ومن مبناه، ومما يُنشأ به منه في مظهره ومجلاه، صنعه وصنع به، تجلاه وتجلى به.

من عبَّد نفسه لمولاه وجد وجه رَبِه، بأزله إليه أباه والآباء، ووجه ربه بأبده إليه أبناءه والأبناء، رضيه وأرضاه، فرضيه الآباء، كما رضيه الأبناء، وجوها لله وكلمات له وروح قدس منه، فكان في ذلك من الله له ولهم منتهى العطاء لا يجز فيه الجزاء، وكان فيه جمال وعظمة العطاء، وفضل ورحمة البلاء في الابتلاء...

فإن رآه باصطفاء الله له، وإمساكه به، وقيامه عليه، عبدًا له قد ظهر به بمعناه، لآبائه وأبنائه، على ما تولاه، قبل أن يظهر بهم لمعناه، كان في هذا عطاء له مصحوبا بالاختبار والابتلاء.. نعم هو ذاك لهم، ولكنهم أصل فطرته، وأصل نشأته آباءً، أو ثمرة فطرته وعين قيامته أبناءً. والله بإحاطته لا اتجاه له في زمان أو مكان، فما فارق القيام عليهم يوم قاموا، ويوم يقومون. وما كانوا غيرهم منه في الأبناء يبعثون. فإن أدرك ذلك، وحرص على وصف العبد له معنىً فيه، ولم يستكبر بوصف الرب فيه معنىً به، على من هو منهم عينهم، وعلى من هم منه عينه، فسأل من أكرمه بهم وجودا أن يكون فيهم له شهودا، ومن قامه، أن يتم نعمته عليهم فيقومهم، له مشهودا بعث الآباء من خلاله أبناءً له، وتصاعد الأبناء من خلاله آباءً له يتم الله لهم نورهم، ويجعلهم به على مثاله عبادا له، فينزل عنه لهم أربابا عليه فيتعلم بذلك في الله تواضعه، ويعلم به تنزيهه، ويرى أن عطاءه للكل قريب، وأن جزاءه لطالبه نصيب، وأنه القائم على من أدرك قيامه عليه ومن لم يدرك، قائم دائم لا يغيب، وعرَف أن الافتقار إليه معنى العبد له، وأن معنى العبد له معنى الذكر منه، وأن العبودية أمر لا يجز فيه العطاء، ولا ينقطع عن صاحبه

الاختبار والابتلاء، فيدرك مقالة عبد الله المدرك لعبوديته يوم قال.. إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم سبعين مرة، فيُسأل، أأغيان أغيار يا رسول الله، ويا عبد الله، ويا وجه الحق لله؟ فيقول لا بل هي أغيان أنوار، ويوم قال (نحن آل بيت خلقنا للبلاء)[1].. ويوم قال (لن تموت يا علي حتى يملأ الله قلبك غيظا ويقصم ظهرك نصفين)[2].. ويوم قال (أنا أقربكم إلى الله وأخوفكم منه)[3].. ويوم قال (وها أنا رسول الله بينكم ولا أدري ما يفعل بي غدا)[4] .

إن الذي وصف من الإحاطة ربا له ضالا فهدته، ما كان في نظر الآباء ونظر الأبناء ضالا يهدى، بل على فطرة وجد وبفطرة هدي. إن الذي كان جماع الناس، وفرد الناس، وقيام الناس، وحاضر الناس، وغيب الناس، وصفات الناس، وحق الناس، من رب الناس وملك الناس، من مالك الناس وإله الناس، من القائم على كل نفس، ما مثل ضالا حتى يهدى، وما مَثَل فقيرا حتى يغنى. إنه الفطرة والغناء. إن الذي بعث بالحق ما كان إلا الهداية والهدى، سيدا للأرض من سيد السماء، وسيدا للسماء من سيد الوجود، المعطي بيد العطاء، يدا لمن تبارك صاحبا لملكوت السماء والأرض، والمختبر بعين الابتلاء، جعله قدوة وأسوة لأهل العطاء والاصطفاء، عبده به معنىً فيه، وذكرا له، رسولا منه، ظهر في الناس بذات مولاه وجها له، وبصفات من اجتباه تعريفا عنه فتخلق قائما متخلقا بأخلاق الله، في قديم به حقا بعث، وفي جديد به ذكرا قُدر، وفي قابل بمعناه كلمة تامة يبعث فتنشق الأرض عنه، فتلد الأمة ربها، وتشرق الأرض بنوره ربا لها، كتاب القدم، وقلم الكتاب، في جديد من صحف، على مثال من جديد وجد في القدم تكتب، كما سوف تكتب في جديد صحائف، على مثال مما سودت به في قديم.. دواليك. لا جديد في الحق، لا بدء لخلقه، ولا انتهاء لفعله، ولا بدء لتجليه حقا، ولا احتجاب له متجليا، ولا انقطاع لظهوره بالإنسان فياضا، مشرقا نورا على نور، وحياة على حياة، وظهورا على ظهور، وظهورا لظهور، وقياما على قيام، وقياما بقيام. هكذا في دورة الحياة فيه، لا انقضاء ولا بدء لها، سعادة الأحياء به، وشقاوة الأموات عنه، وبشرى النيام فيه، يحصدون يوم تستقيم فيه فطرتهم، فيتوفاهم بالحياة، ويفقدونهم يوم تعرج فيه نفوسهم بفعلهم في غفلة عن معيته، يصعدون النجدين من أنفسهم ومن معانيهم، ويقومون الثقلين من نورهم وظلامهم، ويبلغون الحضرتين لابتلائهم وقيامهم، حضرة الابتلاء بأنفسهم يقومون، وحضرة النعمة لربهم موكلين ومتوكلين، بأنانية له، إلى اليسار أو إلى اليمين، أو بأنانية لهم عنه غافلين.

ما صدر من الله في وجوده إلا الخير، إلا النعمة، إلا العطاء، فلِمَ يظن الناس به الظنون؟ لِمَ يظنون به ظن السوء، وهو ما كان لهم في كيانهم - أيا ما كانوا وأينما كانوا - إلا معطيا ومنعما حتى في ابتلائه، وما كان إلا مبتليا حتى في نعمائه؟ كيف عرفوه، كيف قدروه، وهم في أنفسهم ما شهدوه، ولا في

تجلياته بهم ولهم لاقوه، ولا بعقولهم وحدوه، ولا بقلوبهم عبدوه، فلحضرته عبَّدوهم، في معاني العبد له وجه قيام، فأدركوه ربا في معاني الحياة لهم باسم الحي القيوم؟ لا بل عنهم غيبوه، ولعقولهم قدروه، وبأوصاف له عنهم نعتوه وأحاطوه، وأدركوه، وبوهم من عقولهم، وبنزوات من نفوسهم، وبجهل لأنفسهم، وبقطيعة عنه لمعانيهم لأنفسهم أوجبوه. فما دخلوا في حصن لا إله إلا الله واتقوه فاتقوا أنفسهم من الشرك به بوهم الغيرية عنه، لا يغفر أن يشرك به، وما قدروه حق قدره، قريبا لا يغيب في معاني الحياة فيهم، فقاموه الحي القيوم، واسعا لا يحاط به، قريبا لا يشرك به، محيطا بهم بظاهره وبغيبه، مقيما لهم بمعاني العبد فيه، بمعنى الأنا له، وجوها له ناظرة به إليه، في نضرته في الوجود، أينما ولوا فوجهه، بوجهه لوجهه ناظر. على هذا قام الإسلام، وبه جاء رسوله، وإليه هدى، وبين الناس به قام، وبه بينهم تكاثر، معنى لا يغيب به، يقوم ويتقلب في الساجدين، جماع كلمات، ومتتالي آيات، وجماع وجوه لوجهه، أمة هي فرد، وفرد هو أمة، على معنى يدوم من أبيه وجده مثَّله إبراهيم، وعلى معنى يدوم في بنيه يمثله منه ابن الإنسان أو المهدي أو المسيح يتوفاه ربه إلى معناه، وعلى معنى من أصله وبدئه وختمه بآدم من قبله، وآدم من بعده، أولا لأوليات لا عد لها، وآخرا لآخريات لا انقطاع ولا حصر لها، في أولية وآخرية الله، لا أول له ولا آخر له، ولا عد ولا حصر لأولياته وآخرياته، بالإنسان يعنون أولية الحق لأهله بأولية الخلق لأهله على صورته في غيبه إنسان الحق، وفي شهادته إنسان الخلق تمسكه يد الإطلاق بالغيب، وتصنعه في دوام يد الحق في شهادته، فتقوم اليد الصانعة على ما صنعت، وتمسكه على مثال مما مُسكت ومَسكت، وأمسكت فعرفت.

(والذي نفسي بيده)[٥]، (والذي بعثني بالحق)[٦]، هكذا يقول المحمد آدم خلقه حالا في يده الحقة، الخالقة في دوام، معنونا إنسانه مشيرا إلى حقه في يد الحق القابضة على أمره وسره...

خاطب قديم معناه في يد مولاه، يُنشأ في جديد مبناه على ما عاين لمعناه، وهذا ما عناه بالرفيق الأعلى في ساحة قبضة مولاه، طلبه ليكونه له أناه. طلبه ليعرفه، ولا يعرفه إلا يوم يكونه في نفسه، ولا يكونه إلا يوم يلقاه ويوافق هواه فيهواه، ولا يلقاه إلا إذا أنشأته اليد الخالقة فيه على صورة من لقيه في معناه ربا له، وكلا لأناه، فكان وجها له بمعناه، وأنا لأناه، ومجلىً لذاته بمبناه قائما وقادما وقديما عبدا وحقا لمن اصطفاه.

بهذا ظهر الحق بظهور محمد الغيب لمحمد الخلق في محمد الناس، فتلقى من ربه الكلمات، وأبرز ربه منه الآيات جديدا لقديم، ثم أخذ من كل أمة بشهيد على رؤوس القرون، وها هو من سمائه تمسكه يد الحق في سماء غيبه، يؤوب إلى الأرض، لتنشق عنه الأرض بمبناه مرة أخرى، وتنشق عنه السماء بمعناه مرة أخرى، فيتابعه أهل السماء إلى الأرض ويتابعه أهل الأرض إلى السماء، فيجتمع به عليه

دواب السماء ودواب الأرض من الإنسان، ويتهيأ دواب الأرض ودواب السماء من الإنسان، لفيوض رحمة الله منه، فتتعرض الأرض ببشريتها وبآدميتها، لروح الله المسماه ينفخها في الأبدان المسماه مرة أخرى، فيمحى مادي الإنسان باسمه ويزهق باطله، ويقوم كريم الإنسان باسمه، ويظهر العنوان بالروح مسمىً للأبدان.

ها هو الإسلام يتجدد مرة أخرى، ويظهر مرة أخرى، ويتعنون فيه الإنسان وابن الإنسان مرة أخرى، وكم جاء قبل محمد مع النبيين عنونوه، فردا فردا، تنشق بهم عنه الأرض وتنشق بهم عن معناه السماء، ويقوم في أحديته كلمة بين الناس ببسم الله الرحمن الرحيم أنبياء له، ورسلا منه، وكلمات إلى الناس بالمعرفة له في المعرفة عنهم، والعنونة عليه بالرب لهم، حتى أتم الغيب لآدم نوره، وأكمل له به فيه أحديته، وجمع شتات واحديته، وأمسكته يد الحق في غيب، وبدأته في شهادة على صورته، وتتابعت الشهادة في التعبير عنه قائما بالقيام به بالأبناء منه، حتى أتمها قديم معناه وربه بآدم وأديم محمد جديد ذاتٍ وعين صفاتٍ خلقةً منه، بها سواه رجلا على مثال قديمه وبدئه، وقال له قل جاء الحق وزهق الباطل، عنون به رحمته، ومد به للبشرية يده، وبايع على نفسه بحقه نفوس خلقه، فما خلقها إلا لنفسه ولتصنع على عينه، وجعل في ذلك تمام دينه، وتمام سلامه، فخاطب عبده ورسوله، وجماع كلماته، واجتماع آياته، أن يكون قدوة وأسوة لجنسه في قديم جنسه، بالرفيق الأعلى لمعناه عين معناه وحاضر جنسه، بعين ربه حقا ووجها، فكان لحاضره الأب والأخ والولد، ولقادم جنسه بشرى العين والروح والذات والأبد، وبذلك كمل الدين، وأظهره الديان على الدين كله، وجعله الدين كله، وأمره أن يظهر بالدين كله، لكلٍّ على ما يستحقه، مخيرا فيما أعطى، مفوضا فيما عَلِم، مبلغا فيما أمر، قائما بما استقام، مخيرا فيما فيه خير، فاختار الأيسر، وأمر بالميسر، وأمر قومه (من أَمَّ فليخفف)[٧].

هذا جاء به مؤسس الإسلام، كتابا وهديا، وقام به الإسلام في قديمه فطرة وخلقا وبعثا، بعث به محمد بالحق، وتكاثر بالحق، منبعثا في تكاثر الخلق، يقوم ويتقلب في الساجدين، بما أنزل عليه من نور الله، وبما قام به في الناس من روح الله بلا صاحبة ولا ولد، متخلقا بأخلاق الله، معنى الحق لهم منهم، ومعنى العبد له سيدا عليهم، شهد أنه لا إله إلا الله، كما شهد أمام الناس وللناس ومن الناس، أن محمدا على ما يشهدون عبده ورسوله، على ما طلب إليه أن يشهد لهم، فشهدهم لنفسه على ما طلب إليهم أن يشهدوه لأنفسهم وجوها لربه، فشهد من شهد، ووحد من وحد، وقبع في نفسه من قبع، وارتد على عقبيه من ارتد، وسار في الطريق المستقيم من سار. وها نحن اليوم في هذا العصر، نشهد للقديم رجعة، ونشهد لله صولة، ونشهد للرسول جولة، ونشهد للحق منعة وعزة، ونشهد

للباطل خيبة وردة، نشهد للباطل ذلة، ونشهد للحق عزة، فنعتز بلا إله إلا الله، ونهتدي بمحمد رسول الله. هدانا الله وإياكم سواء السبيل، وأقام لنا فينا منه علينا الدليل. وهو بهذا كفيل وعلينا به وكيل.

اللهم إنا نرجع إليك بنفوسنا، لا نملكها، ولا نسيطر عليها، نردها إليك وأنت صانعها، على ما تعلم، وعلى ما أحكمت بما لا نعلم، اللهم فتولَها، وبرحمتك فاهدها، وبعزتك فأشعلها ولا تطفها، وخذ بنواصيها إلى الخير، بمحيط قبضتك، وبشامل عزتك. اللهم اجعلها معنى العبد فيك، وأقمها معنى العبد لك، وتولَها برحمتك وبهدايتك، ولا تحرمناها، وقد علمتناها، وقد جعلتنا إياها، حتى نتلاقى بمعنانا عبدا لك، بمعناك ربا لنا فيها، وبيتا لك في يومنا بها منك، وساعتنا لرحمتك بلقائك. اللهم اجعلها دار حكمة، ودار رحمة، ودار معرفة، ودار سجود لمعانينا، واجعلها مبنى لذاتنا، وعنوانا بك لمعانينا، لا إله إلا أنت ولا معبود سواك، العبد لك من عبَّدت لنفسك، ومن اصطفيت لإبراز أناك بمعناك. اللهم فارحمنا بعبدك ورسولك، واجعلنا به عبادا لك، وعبادا له. اللهم به فاقبلنا. اللهم به فأحينا. اللهم به فتواجدنا. اللهم به فابعثنا. اللهم به فأغنِ فقرنا، وأحسن مأوانا، وزين دارنا، وقوم مبنانا. اللهم به فأنر بصائرنا وأحيِ أبصارنا، وأنر بيوتنا من قلوبنا، بيوتا لك، وقبلة لمبانينا ومعانينا، وقوم بما قومت جوارحه جوارحنا، حتى نستقيم فيك بالفعل منسوبا إليك صادرا عنا، وبالقيام مردودا لقيامك وإن كنا، أشهدنا أنه لا إله إلا أنت، وأشهدنا أننا معنى العبد لك، وأنه لا إله إلا الله، وأننا محمد عبده ورسوله.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ استلهاما من الحديث الشريف: " إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا.. "بحار الأنوار. المكتبة الشيعية.

٢ إشارة إلى الحديث الشريف: عن أنس بن مالك: "دخلت مع النبي (صلى الله عليه وآله) على علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) يعوده وهو مريض وعنده أبو بكر وعمر، فتحولا حتى جلس رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال أحدهما لصاحبه: ما أراه إلا هالك! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنه لن يموت إلا مقتولا، ولن يموت حتى يملأ غيظا." المستدرك على الصحيحين.

٣ من معنى الحديث الشريف: "إِنَّ أَتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ باللَّهِ أَنَا." صحيح البخاري. أيضا "... ما بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللَّهِ، وأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً." أخرجه البخاري ومسلم.

٤ إشارة إلى الحديث الشريف: "واللَّهِ ما أدرِي - وأَنا رسول اللَّه - ما يفعل بي ولا بكم." صحيح البخاري.

٥ قسم يبدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أحاديثه.

٦ قسم يبدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أحاديثه.

٧ حديث شريف: "إذا أمَّ أحدُكُم النَّاسَ فليخفِّف، فإنَّ فيهمُ الصَّغيرَ والكبيرَ والضَّعيفَ والمريضَ، فإذا صلَّى وحدَهُ، فليصلِّ كيفَ شاءَ." صحيح الترمذي.